المؤثّرات الوافدة في الأدب العبَّاسي (سهل بن هارون نموذجًا)

د. قحطان صالح الفلاح

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الفرات

الملخص

حازَ سهلُ بن هارون (ت215هـ) قَدْرًا كبيرًا من ثقافة عصره الواسعة، ونَهِلَ من ينابيع العِلم في البصرة حتَّى ارتوى. وقد ازدحمت في بيئته تيّاراتٌ مُختلفة من الثَّقافات والأفكار، فتشرّبها روحُه، وسرى ألْقُها في نفسِه، ووَعاها عقلُه، فغذّى بها أدبَه، ولهِجَ بها لسانُه. والأديب إنّما يصدرُ عن معارفه، وحصيلة ثقافته، فيقيم بها أَوَدَ مَوهبته.

ويبدو أنَّ سَهْلاً كان دائرةَ معارف واسعة، وأنَّ طريقتَه في النَّثر الفنّيّ، وطَرافة موضوعاته وجِدّتها كانتا حصيلة هذه المعارف، ولَقاح تلك الأفكار. وسنتعرّف في هذا البحث التيّارات الثّقافيّة الوافدة التي أثّرت في تكوينه، فصدرَ عنها في أدبه، ونحا نَحْوها في موضوعاته وأفكاره.

أوَّلاً: معالم حياته(*):

هو أبو عمرو (وقيل: أبو محمَّد، وقيل: أبو عمر): سهل بن هارون بن رَاهَبُوْن. وهو فارسيُّ الأصل بإجماع المصادر. غادر مَسْقطَ رأسه إلى البصرة، ثُمّ ما لبث أن غَذَّ السَّير مُيمّمًا بغداد، وصار كاتبًا في دواوين يحيى البرمكيّ، مُلازمًا له. ثمّ كتب بين يدي الرَّشيد، وجلّت منزلته عنده. كما سطعَ نجمُه في بَلاط المأمون؛ إذ جعله قيّمًا أو كاتبًا على خزانة الحِكمة.

وقد أجمعت المصادر على أنَّه كان حكيمًا حليمًا وشاعرًا أديبًا، لُقّب لحكمته بـ (بُزُرْجمِهر الإسلام)[1]، وعدّه محمَّد بن إسحاق النَّديم من البُلغاء، كما عدَّه من الشُّعراء الكُتّاب، وقال فيه الجاحظ : «من الخطباء الشُّعراء الذين قد جمعوا الشّعرَ والخطبَ، والرَّسائلَ الطِّوالَ والقصارَ، والكتبَ الكبارَ المخلّدة، والسِّيَرَ الحِسَان المدوّنة، والأخبار المولّدة»[2].

(*) ينظر في ترجمته: الجاحظ: البيان والتبيين 52/1 ومواطن أخرى. وابن عبد ربه: العقد 58/5 – 62. والنديم: الفهرست، ص476،265،271،202،192. واليمني: مضاهاة أمثال كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب، ص7. والحصري: زهر الآداب وثمر الألباب 577/1. وابن بدرون: شرح قصيدة ابن عبدون، ص 243–244. والحموي: معجم الأدباء 405/3. والصفدي: الوافي بالوفيات 18/16–20. والكتبي: فوات الوفيات 84/2– 85. وابن نباتة: سرح العيون، ص242– 248. والدميري: حياة الحيوان الكبرى 385/2. والبغدادي: هدية العارفين 411/1، وإيضاح المكنون 41/2، ومصادر غيرها.

1. بزرجمهر بن البختكان: من أشهر حكماء الفُرس، ومن أكبر علماء عصره، كان كسرى أنوشروان يفضّله على وزرائه وعلماء دهره، عُرف بالحكمة وسَداد الرَّأي، وله حِكم منثورة، وأقوالٌ مشهورة، وكلام كثير في الزّهد وغيره. يُنظر: الأخبار الطّوال، ص72. ومروج الذهب 305/1 –306.

2. البيان والتبيين 52/1.

على أنَّ أغلبَ المصادر وَصَفَتْه بالبُخل والشُّعوبيَّة والتَّعصب على العرب. وممّا يُؤسف له أنَّ مُصنّفاته وكُتبه عَدت عليها عَوَادي الدَّهر وصُروفه فما أبقت إلاّ شذرات مبثوثة في كتب التُّراث، شعرًا ونثرًا، وقصّة (النَّمِر والثَّعلب). وقد كانت وفاته، على أرجح الأقوال، سنة 215هـ.

ثانيًا . المؤثّرات الوافدة:

لا ريبَ في أنَّ التيّارات الثَّقافيّة الوافدة التي أثّرت في تكوين سهل بن هارون، وصدرَ عنها في أدبه، ونحا نَحْوها في موضوعاته وأفكاره، كثيرةٌ ومتنوّعة، ولعلَّ أهمَّها المصدر الفارسيّ الذي تعمّقه حتَّى الشَّغاف، ولا غروَ في ذلك، فهو فارسيّ الأصل. كما أنَّ التّأثير الهنديّ يبدو واضحًا في تكوينه، أمّا التّأثير اليونانيّ فغدا بارزًا من خلال نزعته العقليّة، التي تحاكي مناطقةَ اليُونان وفلاسفتهم.

1- المصدر الفارسيّ:

يبدو أنَّ تأثير الثَّقافة الفارسيَّة في الفكر العربيّ كان بعيدَ الغَور في ميادين عدّة. وقد كانت عملية النَّقل والتَّرجمة من أهمِّ مسالك الفكر الفارسيّ إلى الثَّقافة العربيَّة، فضلاً عن الاتصال المباشر بالفُرس عن طريق الاختلاط والسُّكنى؛ إذ إنَّ العرب لم يكونوا بعيدين عن الحياة الفارسيَّة قبل الإسلام، فكان ثمّة صِلات بين عرب الحِيرة واليمن والدّولة السّاسانية، ثم أَضْحَوا في العصر العبَّاسيّ الأوّل جزءًا من نسيج الدّولة وعُنصرًا فاعلاً في بنائها السّامق؛ إذ كان للفُرس النّصيب الأوفى في قيام الدّولة العبّاسية، فقد كان مقرّ الدّعوة في خُراسان، ومنها أقبلت الرّايات السّود، لتدكَّ معاقل الأمويين، وتخضدَ شوكتهم، فلا تقوم لهم بعد ذلك في المشرق قائمة.

ويعتلي بنو العبّاس سُدَّة الخلافة، فلا يغمطوا لهم فَضْلَهم في قيام دولتهم، بل إنَّهم جاهروا به في كلِّ مقامٍ اقتضى هذا المقال. يقول داود بن عليّ عمّ الخليفة السَّفّاح: «يا أهل الكوفة ! إنّا، واللهِ، ما زلنا مظلومين مقهورين على حقّنا؛ حتَّى أتاح

الله لنا شِيعتنا أهل خُراسان، فأحيا بهم حَقَّنَا، وأَفْلَجَ بهم حُجَّتَنَا، وأظهر بهم دولتَنا»[3]. وذكر المسعوديّ (ت 346هـ) أنَّهم كانوا يُسَمّون باب خُراسان في بغداد (باب الدّولة)؛ لأنَّ رايات الدَّولة العبَّاسيَّة، أقبلت من خُراسان[4].

وقد كان تأثير الثَّقافة الفارسيَّة في الحضارة الإسلاميَّة واضحًا، سواء في الجوانب الماديّة أو المعنويَّة؛ إذ نجد التَّأثّر في الملبس والمسكن والعُمْران وغيرها من مظاهر الحياة الاجتماعيَّة. كما بدت غلبة الصّبغة الفارسيَّة على نُظم الحُكم السِّياسيَّة والإداريَّة للدّولة العبَّاسيَّة، واستأثر رجالاتهم بالمناصب الرَّفيعة والنّفوذ الواسع، إلى درجة رُجْحَان كفّتهم على العرب، فكان منهم الوزراء والولاة والعمّال والقادة، بل إنَّ معظم وزراء الدَّولة من الفرس. وكان نظام الوزارة ممّا أخذه العبَّاسيّون عن الفُرس بطابعه الفارسيّ السّاساني؛ علمًا أنَّ كلمة وزير عربيَّة، قال تعالى: ﴿ **وَاجْعَلْ لي وَزِيرًا من أَهْلي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وأَشْرِكْهُ في أَمْرِي ۝٣٢** ﴾ [طه: 20/29-32].

بَيْدَ أنَّ الوزير بالمعنى الاصطلاحيّ، لم يُعرف قبل هذا العصر، وإنّما كان ثمّة أعوان يقومون مقام الوزير، يقول صاحب (الفخري في الآداب السُّلطانيَّة): «والوزارة لم تتمهّد قواعدها، وتتقرّر قوانينها إلا في دولة بني العبَّاس، فأمّا قبل ذلك، فلم تكن مقنّنة القواعد، ولا مقرّرة القوانين؛ بل كان لكلِّ واحدٍ من الملوك أتباعٌ وحاشية، فإذا حدث أمرٌ استشار ذوي الحِجَا والآراء الصّائبة، فكلٌّ منهم يجري مَجْرى وزير. فلمّا ملك بنو العبَّاس تقرّرت قوانين الوزارة، وسُمّي الوزير وزيرًا، وكان قبل ذلك يُسمّى كاتبًا أو مُشيرًا»[5].

3. الطبري 7/427-428.

4. مروج الذهب 3/299.

5- ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السّلطانية والدول الإسلامية، ص153.

وكان لوزراء الدّولة وكُتّابها وولاتها من الفُرس أثرٌ لا يُجْحد في نقل مآثرهم الفارسيَّة، ونخصّ بالذّكر منهم البرامكة وبني سهل. وكان الفضل بن سهل وزير المأمون، يُلقّب بذي الرّياستين: السّيف والقلم، أو رياسة الحرب ورياسة التدبير.

وفي ميدان التَّرجمة عكف رجالُ فارس، على نقلِ ما وصلت إليه أيديهم، من تُراث أجدادهم الزَّاخر. وكان أشهرهم عبد الله بن المُقفَّع (ت 142هـ)، ومحمَّد بن الجَهْم البرمكيّ، وسهل بن هارون (ت215هـ)، والحسن بن سهل (ت 236هـ)، وآل نُوبخت، وغيرهم كثير، ممّن ذكرهم صاحب الفِهْرِست[6].

أمّا أسماء الكتب الفارسيَّة المترجمة .كما أحصاها صاحب الفِهْرِست أيضًا . فكثيرةٌ كثرة غَامرة؛ بل «يُخيّل إلى الإنسان أنَّه لم يَبْقَ أثرٌ في اللُّغة البهلويَّة إلاّ تُرجم إلى العربيَّة، سواء تعلّق بتاريخ السَّاسانيّين، أو بآدابهم، ومن ثَمَّ بالغ بعضُ المُحْدَثين، فيما كان للثّقافة الفارسيَّة من أثرٍ في العقل العربيّ»[7]. ويرى محمَّد محمّدي أنَّ «الكتب الفارسيَّة أوَّل ما تُرجم إلى العربيَّة من الآثار الخارجيَّة في الأدب والسّياسة، فوضعت بمتناول حُكَّام العرب وقوّادهم ثمار تجارب قرون عديدة من الحُكْم والسّياسة، وأصنافًا من العلوم والآداب»[8]. ومن المعلوم أنَّ الفرس أمّة عريقة في تدبير شُؤون الحُكم، وسياسة البلاد والعباد.

لهذا كلّه بدا تأثير الثّقافة الفارسيَّة في نفس الرُّجل بعيدَ الغَوْر، يَسْري فيها مَسْرَى الدّم من العُروق، ويخالط شَغَاف قلبِه، ولا غروَ في ذلك، فهو فارسيّ الأَرُوْمَة، شُعوبيّ المذهب، يتغنّى بأمجاد فارس، وحضارة آل ساسان. وقد كان يجيدُ الفارسيّة، ويُترجم عنها، وممّا يدلّ على ذلك ويؤكّده ما ذكره الصّفدي في الوافي بالوَفيات في ترجمة (سَهْلون الكِسْرَويّ)؛ إذ ذكر أنَّه من أهل فارس وكان هو وأخوه يزدجرد «يذهبان مَذْهب سهلِ بن هارون في الفصاحة والتّصنيف، وتَرْجَمة الفارسيّ بالعربيّ،

6- النديم: الفهرست، ص399-400.

7- ضيف، شوقي، الفنّ ومذاهبه في النثر العربيّ، ص122.

8- الأدب الفارسي، ص96.

ويتشبّهان به...». بالإضافة إلى أدبه الذي تمتزج فيه معاني الفُرس بلغة العرب وبلاغتها.

ولا يمكن أن نزعمَ أنَّ هذا الامتزاج مَصْدرُه شيوع الثّقافة الفارسيّة في المجتمع العربيّ آنذاك، وإلى ما قام به المترجمون من نَقْلِ ذَخائرها فحسب، بل إنَّ الأمرَ أعمقُ من ذلك وأبعد، يبين لنا جليًّا من خلال التَّعريج على بعض الملامح المميّزة في سيرة حياة الرّجل، وجِدّة الموضوعات والأفكار التي طَرَقَها.

إنَّ ارتقاءَ سهلٍ هذا المُرْتقى الصّعب؛ أي وصوله إلى منزلةٍ سامقة ومكانةٍ عليّة بين كُتّاب عصره ومُترسّليه، بين يَدَي يحيى البرمكيّ، ثمّ الرّشيد الذي أَجَلَّه وعَرَفَ فَضْلَه فعفا عنه، لَيَعْضُد ما ذهبتُ إليه آنفًا، من أنّه كان يُجيدُ الفارسيّة وينقلُ عنها. «وكان منصب الكاتب يقتضيه أن يكون واسع الثقافة، مُتجدّد المعرفة، لأنّه يعرض على الخليفة أو الوالي ما يُرْسَل إليه، ويكتب عنه ما يُرْسَل منه، فلم يكن بُدٌّ للكُتّاب من إجادتهم العربيّة ومعرفتهم بالأدب الفارسيّ، لهذا ألمّوا بحِكَم العرب وحِكَم الفُرس، ووقفوا على تاريخ العرب وتاريخ الفُرس، وجمعوا بين حِكم الخلفاء الرّاشدين، وأكثم بن صيفي، وحكم بُزُرْجمِهر، وكسرى أنوشروان»[9].

وإذا كان هذا شأن الكُتّاب جميعًا، فإنَّ سهلاً بَزَّ شَأوهم في عصره، واستأثر برفيعِ المنزلة، وجميل الذّكر، فكان أدبُ العرب رهينَ عقله وقلبه، وكان تراثُ فارس جيسَ فِكْره ونَفْسه، فإذا أطلقَ لهما العِقال، جَرَيَا كفَرَسيْ رِهَان، في أرضٍ ذَلُول.

وهذا الجاحظُ يُقرّ بثقافة سهلٍ الفارسيَّة، حين يقول: «ونحنُ لا نستطيعُ أنْ نعلمَ أنَّ الرّسائلَ التي بأيدي النَّاس للفُرس، أنَّها صحيحةٌ غير مصنوعة، وقديمة غير مولّدة؛ إذْ كان مثل ابن المقفَّع وسهل بن هارون، وأبي عُبَيد الله، وعبد الحميد وغيلان، يستطيعون أن يولّدوا مثل تلك الرّسائل، ويَصْنعوا مثل تلك السِّيَر»[10].

9- الحوفي، أحمد محمّد: تيّارات ثقافيَّة بين العرب والفرس، ص186.

10- الجاحظ: البيان والتبيين 29/3. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية 271/6.

ولا أدلّ من هذا الكلام . فيما أحسب . على إتقانه الفارسيّة؛ إذ كيف يمكنه أن يصوغَ رسالةً على النّمط الفارسيّ، أو يكتبَ سِيْرةً من سِيَر الفُرس، إذا لم يطّلعْ عليها بالفارسيّة، أو على الأقلّ يقرأ عنها، ثُمَّ يؤلّف على غِرارها، ويَنْسِج على مِنْوالها. ومرّ بنا أنَّ الجاحظ التقى سهلاً غير مرّة وثَاقَفه وروى عنه، فهو حَسَنُ المعرفة به، يعلمُ مقدرتَه الحقّة تمام العلم، ولهذا كان دائم الثّناء عليه، والإكبار له.

وأوصى إبراهيم بن المدبّر (ت نحو 279هـ) مَنْ يبتغي سُبل الكتابة، قائلاً: «...وانظر في كُتب المقامات والخُطب ومُحاورات العرب، ومعاني العجم، وحُدود المنطق، وأمثال الفُرس، ورَسَائلهم وعُهودهم، وتوقيعاتهم وسِيَرهم، ومَكايدهم في حروبهم»[11]. فإذا كانت الثَّقافة الفارسيَّة أداةً من أدوات الكتابة في الدّواوين، فأحرى بسَهْلٍ، وهو الفارسيّ الأَرُوْمة، أن يكونَ العَلَمَ الفردَ في ساحتها، والفارسَ المُجَلِّي في ميدانها. وحقًّا، «انفردَ سهلٌ في زمانه بالبلاغة والحِكمة، وصنّف الكُتب الحَسَنة، مُعارضًا بها كتب الأوائل، حتَّى قيل له: بُزُرْجمِهر الإسلام»[12]، فهو يقوم في العرب مقام بُزُرْجمِهر في الفُرس، في الحِكْمة والعقل والبلاغة والبيان.

فلا يُعقل . والحال ما ذكرنا . ألا يتقنَ سهلٌ الفارسيّة، وقد أتقنها أقرانُه من الكُتّاب والبُلغاء، كسَلْم صاحب بيت الحِكمة معه، وعليّ بن داود كاتب زُبيدة، الذي يسلك سبيلَ سهلٍ في التّصنيف والتّأليف . كما ذكر صاحب الفِهرست[13] . وأبان بن عبد الحميد اللاحقيّ[14]، وغير هؤلاء ممّن ينتهي أصلُه إلى الفُرس. ولم يتوقَّف إتقان الفارسيّة عليهم، بل إنَّ كثيرًا من العرب كانوا يُتقنونها كالشَّاعر العتَّابي مثلاً، ثمّ إنّ

11- الرسالة العذراء، ص228 (ضمن رسائل البلغاء).

12- ابن نباتة: سرح العيون، ص242.

13- النديم: الفهرست، ص193.

14- أبان بن عبد الحميد اللاحقي: شاعر مُكثر، من أهل البصرة، كان صاحب البرامكة وشاعرهم وصاحب جوائزهم للشُّعراء، وقد نظمَ لهم (كليلة ودِمْنة) شعرًا، ت نحو 200 هـ. ينظر: طبقات الشّعراء، ص240-241. الفهرست، ص190.

البرامكة، أولياء نعمته، «ما كانوا يوطّئون أكنافهم، ويُلينون جنباتهم إلا لمن أظهر تعصّبًا لدم الفُرس وثقافتهم وحضارتهم وسلطانهم»[15].

وبناءً على ما سَلَفَ ذكره، فإنَّ إجادةَ سهلِ بن هارون لغة قومه أمرٌ لا مِرْيةَ فيه. زِدْ على ذلك ثقافته الواسعة بأدب أجداده الفُرس، وتراثهم التّليد. علمًا أنَّه حصّل قدرًا كبيرًا من ثقافات الأمم الأخرى ومعارفها أيضًا، وازدحم في صدره فيضٌ هادرٌ منها جميعًا.

أمَّا في أدبه، فقد اتَّبع الرَّجلُ سَنَنَ قومِه في التَّأليف والتَّصنيف، فألَّف في موضوعاتٍ جديدة في الأدب العربيّ، تُعَدُّ من صميم الثّقافة الفارسيّة، لعلَّ من أهمّها موضوع الحكاية على لسان الحيوان. وإذا كان هذا الجنس الأدبيّ هنديًّا في أصوله على ما يرى كثيرٌ من الباحثين؛ فإنَّ مَسْلَكَه إلى الأدب العربيّ كان عن طريق الفُرس. ولا يُقصد بهذا الكلام أنّه لم يكن موجودًا في أدبنا العربيّ، بل هو حافلٌ بهذه الحكايات الرّامزة، إلا أنّها كانت تُروى شِفاهًا، وعلى نحوٍ غير مجموعٍ في كتابٍ واحد.

ونقلَ ابنُ المقفَّع (ت142هـ) (كليلة ودِمْنة) عن اللُّغة الفهلويّة، وكانَ تُرجم إليها من السّنسكريتيّة في زمن كسرى أنوشروان كما يُقال، فأسدى بهذا الصّنيع يَدًا بيضاء إلى أدبنا العربيّ. وحاكاه سهلُ بن هارون، وسار على غِرَاره، فأبدع وأمتع؛ إذ كتبَ (ثعلة وعفراء) و(النّمر والثّعلب)، وتجاوز ابنَ المقفَّع في هذا السَّبيل، فألّف أكثرَ من قصّةٍ على لسان الحيوان. ويبدو من عناوين كُتبِه أنَّه أجرى بعضَ قصصه على لسان الإنسان أيضًا، مثل (المخزوميّ والهذليَّة) و(الوامق والعذراء). إلا أنَّ ما يهمّنا هنا هو معرفة إذا ما ترجم سهلٌ بعضَ هذه الكتب عن الفارسيّة أو أنَّها من تأليفه؟

والحقّ أنَّ أحدًا ممَّن ترجمَ له لم يذكرْ . صراحةً . أنَّ من بين كُتبه ترجمة عن الفارسيّة أو غيرها، إلا أنَّ قصّة (الوامق والعذراء) تتّفق في عنوانها مع قصّة فارسيّة قديمة من بقايا العهد السَّاسانيّ، ترجمها إلى العربيّة أبو الرّيحان البيرونيّ

15- العاكوب، عيسى: تأثير الحكم الفارسيّة في الأدب العربيّ، ص158.

(ت440هـ)[16]، المؤرّخ والفيلسوف الشّهير. وإذْ عرفنا «أنَّ سهلاً كان من النَّقَلَةِ من الفارسيّة، فمن المحتمل أن يكونَ قد نقلَ هذا الكتاب من الفارسيّة قبل البيروني، أو أن يكونَ قد وضع كتابًا آخر على غِرار هذه القصّة الفارسيّة، وسمّاه باسمها»[17].

ويُعَدّ موضوع (السّياسة المُلوكيّة) من أهمّ الموضوعات الفارسيّة، التي برّز فيها سهلٌ ولمعَ نجمُه. والفُرس ـ كما هو معروف ـ أمّةٌ عريقة، لها في السّياسة وإدارة الحُكم وتنظيم شؤون المُلك باعٌ مَديد، وفِكرٌ سَديد، فنَهِلَ سهلٌ من مَعِين فِكْرهم، وحُسْن تدبيرهم وسياستهم. ومن كُتبِه في هذا الشّأن (كتاب تدبير المُلك والسّياسة)، كما بثّ آراءه في السّياسةِ وتنظيمِ المُلك في تضاعيف كتبه الأخرى.

وتطالعنا كثيرٌ من النّصوص المتعلّقة بهذا الأمر، وتُعدّ قصصه على لسان الحيوان، منبرًا لبثِّ هذه الآراء، وحسبي أن أذكر مثلاً قولَ سهلٍ للفضل بن سهل، وزيرِ المأمون: «إنَّ الحاجبَ أحدُ وَجْهي المَلك، يُعتَبرُ عليه برأفته، ويلحقُه ما كان في غِلظته وفَظاظته، فاتّخذ حاجبَك سهلَ الطّبيعة، معروفًا بالرّأفة، مألوفًا منه البِرُّ والرَّحمة، وليكن جميلَ الهيئة، حَسَنَ البَسْطة، ذا قَصْدٍ في نيّته وصالح أفعاله. ومُرْهُ فليضعِ النَّاسَ على مَرَاتبهم، وليأذنْ لهم في تفاضُلِ منازلهم، وليُعْطِ كُلاً بقِسْطِه من وَجْهِهِ، ويستعطفْ قلوبَ الجميع إليه، حتَّى لا يغشى البابَ أحدٌ وهو يخافُ أن يُقَصَّرَ به عن مَرْتبته، ولا أن يمنعَ في مدخلٍ أو مَجْلسٍ أو موضعِ إذنٍ شيئًا يستحقُّه، ولا أنْ يَمْنَعَ أحدًا مرتبته، وليضعْ كُلاً عندك على مَنْزلته. وتَعَهَّدْه فإنْ قَصَّرَ مُقَصِّرٌ قام بحُسْنِ خِلافته وتزيين أمره»[18].

16- البيروني: محمّد بن أحمد، أبو الرّيحان، الخوارزميّ، فيلسوف رياضيّ مُؤرّخ، أقام في الهند بضع سنين، وله تصانيف عديدة، ت سنة 440هـ. ينظر: معجم الأدباء 5/122-130.

17- محمّدي، محمّد: الأدب الفارسيّ، ص146.

18- الجاحظ: رسائل الجاحظ، (كتاب الحجاب 2/38-39). الخفاجي، ابن شهاب: طراز المجالس، ص114.

ومن وجوهِ تأثّره بأدب الفُرس، واستلهامه من مَعين فِكْرهم، تأليفُه كتاب (سيرة المأمون)؛ فهو . بلا ريب . يقلّدُ فيه قومَه، في كُتبهم المعروفة بسِيَرِ المُلوك (خُدَاينامه)، وقد تُرجِم منها الكثير إلى العربيّة، وتُعَدُّ مجالاً فسيحًا لتضمين الحِكَم والنَّصائح وضَرْب الأمثال وأخذ العِبَر. ويُظْهِرُ الفُرس تعلّقًا شديدًا بمُلوكهم؛ إذ «تُؤكّد أقاصيصُ الشَّاهنامة اعتقاد الإيرانيّين الرَّاسخ في عدم إمكان قيام دولتهم وصلاح أمرهم، بغير الالتفاف حول مَلك، واستنكارهم الخروج عن طاعة الملوك الشّرعيّين وتوقّعهم سوء المصير للخارج عليهم»[19]. ومن ثَمَّ وَرِثَ سهلٌ اعتقادهم، وتأثّر به، لذا لا عجبَ أن نراه في قصّة (النّمر والثّعلب)، ينصح الذّئب (الوالي المتمرّد) على لسان الثّعلب، بعد أنْ لجَّ في عصيان النَّمر (الملك الشَّرعيّ) قائلاً: «فارْفُق به، واسلك سبيلَ مُوافقته، فإنَّك راعٍ في وُلايته، ولا تأخذ به في طريق العُجب، فيأخذ بك في طريق القَهْرِ والغَلَبة»[20]. وقال في موضعٍ آخر: «وقد كان يُقال: مَن غالبَ المَلِكَ الحاذقَ الأريبَ المصنوع له، الذي لا تُبْطِرُه السَّرَّاءُ ولا تُذْهِشُه الضَّرَّاءُ، فإنَّ حَيْنَه يَحْذُوه. وقال بعضُ الحُكماء: مُعاداةُ الملوكِ كالسَّيلِ باللّيل، لا تدري كيف يأتيك، ولا كيف تَتَّقِيه»[21].

ويُمكن اعتداد موضوع الحِكَمِ والنَّصائح والوصايا الفارسيَّة، من أهمّ ما اخْتصَّ به أدبُ سهلٍ، فقد بثَّه في تضاعيفِ كُتبه، وأَدْرَجَه في أثناء كلامه، واتّخذه قالبًا يصوغُ فيه عُصَارةَ فِكْرِه وخُلاصةَ تجاربه، في السّياسة والاجتماع والأخلاق.

ومن كُتبِه في هذا المِضْمار كتاب (الإخوان) الذي ذكره الجاحظ، وذكرَ له صاحبُ الفِهرست (اسباسيوس في اتخاذ الإخوان)، ولعلّهما كتابٌ واحد. ويبدو من عُنوانهما أنّهما يعالجان قضيةَ الصّداقة والصّديق، التي تطرّق إليها قبله ابنُ المقفَّع في كتابيه (الأدب الصغير والأدب الكبير)، بيد أنَّ سهلاً يفرد لها كتابًا كاملاً، على نحوٍ ما يبدو.

19- بدوي، أمين عبد المجيد: جولة في شاهنامة الفردوسيّ، ص40.

20- النّمر والثّعلب، ص25.

21 - النّمر والثّعلب، ص29. والحَيْنُ: الهلاك.

وهو في تعاملِه مع إخوانه، «واسع الحِلم، إنْ فُوخِرَ لم يكذب، وإنْ مُوزِحَ لم يغضب، كالغيثِ أين وقعَ نَفَع، وكالشَّمسِ حيث أَوْفَت أَحْيَت، وكالأرضِ ما حمّلتها حملت، وكالماء طَهُورٌ لمُلتمسه، وناقعٌ لُغلَّةِ مَن احترَّ إليه»[22]. ولهذا كلّه لا عجب أن نرى سهلاً يكتب إلى محمَّد بن زياد الزّياديّ[23] بعد أن هجاه هذا الأخير: «أمَّا بعد: فالسَّلام على عَهْدِك وداعَ ذي ضَنٍّ بك، في غير مَقْلِيَةٍ لك[24]، ولا سَلْوَة عنك، بل استسلامٌ للبَلْوى في أمْرِك، وإقرارٌ بالمُعْجزة في استعطافك، إلى أوانِ فيئتك، أو يجعل الله لنا دَولةً من رَجْعتك، والسَّلام. وكتب في أسفل الكتاب:

إنْ تَعْفُ عن عبدِكَ المُسيءِ ففي عفوك مَأْوًى للفَضْلِ والمِنَنِ
أَتَيْتُ ما أستحقُّ من خطأ فَجُدْ بما تستحقُّ من حَسَنِ»[25]

ويظهرُ أنَّ سهلاً يمتلكُ قُدرةً مُتميّزة على ضبطِ النَّفس، والمحافظة على الصّديق، والحرص على المودَّة، والتَّرفّع عن الدّنايا والهجاء، والإقذاع في الكلام مع مَنْ أساء إليه. ومرَّ بنا أنَّ المأمون كان «قد استثقل سهلَ بن هارون، فدخل عليه سهلٌ يومًا، والنّاسُ عندَه على مَنَازلهم، فتكلّم المأمونُ بكلامٍ، فذهبَ فيه كلَّ مَذْهب، فلما فَرَغَ المأمونُ من كلامِه، أقبلَ سهلُ بن هارونَ على ذلك الجَمْعِ، فقال: (ما لكم تَسْمَعُون ولا تَعُون، وتُشَاهِدون ولا تَفْقَهُونَ، وتنظرون ولا تُبصِرون. واللهِ إنَّه ليفعلُ ويقولُ في اليوم القصير مثلَ ما فعلَ بنو مروان وقالوا في الدَّهرِ الطَّويل. عَرَبُكم

22- التوحيدي، أبو حيان: الصّداقة والصّديق، ص287-288. احترّ: عطش.

23 – لم أعثر له على ترجمة، أو أخبار يُعتدُّ بها.

24 – مَقْلية: بُغْض ومَقْت.

25- الحصري: زهر الآداب 578/1.

كَعَجَمِهم، وعَجَمُكُم كعبيدِهم، ولكنْ كيفَ يعرف الدّواءَ مَنْ لا يشعر بالدّاء). قال {الرَّاوي}: فرجعَ له المأمونُ بعد ذلك إلى الرَّأي الأوَّلِ»[26].

وسهلٌ هنا يصدرُ عن أسلوبٍ فارسيٍّ في الاجتماع، كَثُرَ الحديث عنه في كتب السّياسة المُلوكيّة لدى الفُرس، وهو ينحو إلى المبالغة والإسراف في تبجيلِ أولي الأمر، والحفاظ على مكانته عندهم، عن طريق التَّزلّف لهم. وعلّل محمَّد كردعلي هذه المُغالاة والإسراف في التَّبجيل والتَّعظيم عندهم، بقوله: «إنَّ الفُرسَ كانوا قبل حُكْمِ العرب يُؤلّهون ساداتهم وكُبراءهم، وهؤلاء يُسخّرونهم كما يُسخّرون العبيد، وما على العبد إلا إرضاء سَيّده، والإذْهان له، والإسلامُ لم ينزع كلّ ما تأصّل في الطّباع. وصار إيغالُ الفُرس في التّبجيل والتّعظيم خُلقًا لهم، وعادةً مُتأصّلة على الأيّام، فظهر أثر ذلك في الكتابة . والكتابة مرآة صاحبها . على ما لم يُعهد مثله للعرب فيما سبق من الآباد»[27].

وتأثّر سهلٌ أيضًا، في طريقة عرضه للحِكَم والوصايا، بطريقة مُؤْثرة لدى الفُرس، تقع في نفس المتلقّي موقعًا مُحبّبًا؛ تلكم هي طريقة السّؤال والجواب، وهي من مظاهر الفلسفة الإغريقيّة أيضًا، كما في جمهورية أفلاطون. ومن كُتبِ سهلٍ في هذا الموضوع . على نحوِ ما يَشِي به عنوانه . كتاب (المسائل)، وقد تُرجِم عن الفارسيَّة عدد من الكُتب بالعنوان نفسِه، مثل مسائل أنوشروان الموجّهة لبُزُرجمِهر، وإجابته عنها[28]. ولا ندري إذا كان كتابُ سهلٍ مُترجمًا عن الفارسيَّة، أو من تأليفه هو، وسَلَكَ فيه سُبُلَ الفُرس في هذه التّآليف؟

26- الجاحظ: البيان والتبيين 332/1-333 (بهذه الرواية). ابن عبد ربه: العقد 137/2. الحصري: زهر الآداب 576/1. الزمخشري: ربيع الأبرار 278/5. ابن حمدون: التذكرة 271/6. ابن الأبّار: إعتاب الكتّاب، ص89.

27- كردعلي، محمّد: أمراء البيان 22/1.

28- العاكوب، عيسى: تأثير الحِكم الفارسيّة، ص269.

وذكر الصّلاحُ الصَّفديّ وابنُ شاكر الكُتبي لسَهْلٍ كتابًا باسم (الضرس)[29]، بينما يذكر له محمَّد كردعلي كتابًا برسم (الفرس)[30]، والرَّاجح أنَّ أحدهما مُصحّف عن الآخر، وربَّما صحّف النُّسّاخ رَسْمَ (الفرس) إلى (الضرس). فإنْ كان حقًّا، بعنوان (الفرس)، فإنَّ موضوعَه . بلا شكّ . في التَّغنّي بأمجادهم، وسِيَرهم، وتاريخهم، وحضارتهم، وما إلى ذلك. وأحسبُ أنَّه واحدٌ من الكُتب التي أُخذت دليلاً على شُعوبيّته، والتي عناها صاحب الفِهْرِست؛ علمًا أنَّه من المحتمل أنْ يكونَ الكتابُ نفسُه تصحيفًا لكتابه (الضّرْبين)، أو العكس.

هذا، وقد تأثّر سهلٌ بخصائص أسلوبيّة في نثره، تميّزت بها العقليّة الفارسيّة، يمكن المرء أن يقف عندها طويلاً، لولا أنَّ هذا الحديث قد جاوز حَدّه الذي رُسم له.

2- المصدر الهنديّ:

أثَّرت الثَّقافة الهنديَّة في الأدب العبَّاسيّ عامّةً تأثيرًا ملحوظًا، وفي التَّكوين الثَّقافيّ لسَهْلٍ خاصّةً، لا يقلّ عن تأثيرِ الثَّقافات الأخرى التي انصهرت في بُوتقة المجتمع الإسلاميّ، واندمجت فيما بينها؛ لتنتجَ أدبًا من طرازٍ فريد، يُعدّ بحقّ من أبدع ما أنتجه الأدب الإنسانيّ في عصوره المختلفة.

وكانت البصرة، موطن سهلٍ بعد اليَفَاعة، تُسمّى أرض الهند[31]؛ لكثرة مَن فيها منهم، ولحضورهم الأدبيّ والعلميّ المميّز في ساحة الثّقافة البَصْريّة. وقد أسرف الباحثون في الحديث عن تاريخ وجودهم فيها، وعن أدبهم وعلومهم ومعارفهم، واحتكاكهم بالعرب والفُرس، وأثرهم الاجتماعيّ والثّقافيّ والسّياسيّ في تلك المنطقة، حتّى حلول طلائع الفتح الإسلاميّ العظيم، وحدوث التّحوّل الكبير في المجتمع العربيّ

29- الصفدي: الوافي بالوفيات 20/16. الكتبي: فوات الوفيات 85/2.

30 – كردعلي، محمّد: أمراء البيان 166/1.

31- زكي، أحمد كمال: الحياة الأدبيّة في البصرة، ص506.

بعدئذٍ، وما رافقه من امتزاجٍ جنسيّ واجتماعيّ وثقافيّ كبير، بلغ ذروته في هذا العصر.

وكان الفُرس قد تأثّروا بالهنود منذ أن فَتَحَ الإسكندرُ المشرقَ، فامتزجت ثقافتُهم بالثّقافة الهنديّة، وقد ذكرَ صاحبُ الفِهرست كُتبًا هنديّة كثيرة وصلت إلينا عن طريق الفُرس، وعرفنا منها القصص الحيوانيّ، أو القصص الخرافيّ.

والمهمّ في الأمر، أنَّ سَهْلاً تأثّر بالهنود، واستقى كثيرًا من أدبهم، وأوّلُ هذه المؤثّرات التي أسهمت في تكوينه الثّقافيّ، الحكايةُ أو القصَّة على لسان الحيوان، وقد أدرجتُها في الحديث عن التَّكوين الفارسيّ في ثقافة سهل، ولم يكن ذاك موضعها، لولا أنَّها وصلت إلينا عن طريقهم . كما بيّنت سابقًا . وكانت لهم زياداتٌ فيها. بيد أنَّ ثَمَّةَ أمرًا على غايةٍ من الأهميّة في هذا الموضوع، ويتلخّص في الإجابة عن هذا السُّؤال: إذا كان صنيع ابن المقفَّع في ترجمة (كليلة ودِمْنة) إلى العربيَّة، هو الدَّافع المحرّض والباعث المؤثّر في مُحاكاةِ سهلٍ ونَهْجه على مِثَاله، فمن أين استقى سهلٌ حكاياتِه تلك ؟

لا شكَّ في أنَّها كانت مُتداولة شِفاهًا أو كتابة في البصرة على وجه التَّحديد، موطنه بعد أن شبَّ عن الطّوق، ولم يغادرها إلا في مرحلة الشّباب، أو ربّما الكُهولة، بعد أنْ نَهِلَ من ينابيع الثَّقافة فيها. وقلنا إنَّها كانت تُسمّى أرض الهند لكثرتهم فيها، فلا شكَّ أنَّه استمدَّ حكاياته في صُورها البسيطة، والمرويّة شِفاهًا . في الأعمّ الأغلب . من أصولٍ هنديَّة، فصاغها ببيانه الرَّفيع صياغة مُبدعة، وزاد عليها من مُخيّلته الخلاّقة، ما يكفل لها أسباب الإثارة الفنيّة، والمتعة الجماليّة، والإيحاء الرَّامز الذي يبتغيه، من خلال التَّلاعب في سير الأحداث، وإنطاق الشَّخصيَّات، بما يَشِفّ عن المرموزِ إليهم في الحقيقة، وما إلى ذلك من مَقاصد وأهداف، يبتغي تحقيقها تحت ستار القصص الحيوانيّ.

ولا يُعقل . بأيّ حال من الأحوال . أن تكونَ هذه الحكايات نتاجَ مُخيّلته فحسب. والقصص الحيوانيّ وُلد شعبيًّا وفطريًّا في أساسه، وعلى ارتباط وثيقٍ

بالأساطير. ومن الجدير بالذّكر أنَّ النَّظريّة الشَّرقيّة أو نظريّة الاستعارة (في علم الفولكلور)، التي دعا إليها العالم تيودور بنفي Benfey (1809 –1881م) ترى أنَّ الهند هي المنبع الثَّرّ الذي أمدَّ الشُّعوب بمادّة الإبداع الأدبيّ، ومن الهند رحلت الحكايات إلى فارس والجزيرة العربيّة وفلسطين، ومنها عبر البحر المتوسط إلى أوربة[32].

وممَّا يُؤسف له أنَّ قصصه . عامّة . لم تصل إلينا، سوى قصّة (النّمر والثّعلب)، ولو وصلت إلينا لكان بالإمكان دراسة هذا التّأثير دراسة مُقارنة، أو لكان أشارَ سهلٌ في مُقدّماته إلى أصولِ حِكاياته . كما صنع ابنُ المقفَّع . أو ألمحَ إلى ذلك. أمَّا قصّة (النّمر والثّعلب)، فهي قائمة على حكاية واحدة طويلة، وليست مجموعة حكايات مُتداخلة، ولم يُشِرْ سهلٌ في مُقدّمته إلى أمرٍ من هذا القبيل، لذا لا يمكن التَّخمين في أمرِ أصل هذه القصّة، ولا ضرورة لذلك أساسًا؛ لكونِ هذه الأصول تُراثًا شعبيًّا مُتداولاً بين كثيرٍ من أمم الأرض.

ولا يقتصر التّكوين الثّقافيّ الهنديّ لسهلٍ على نوعِ الحكاية على لسان الحيوان، بل إنَّ الحِكَم والمأثورات الهنديّة من أبرز ما استلهمه سهلٌ ووظّفه توظيفًا رائعًا في أدبه، ذلك أنَّ العرب «نقلوا عن الهنود كثيرًا من الحِكم الهنديّة، لأنّها تلائم الذّوق العربيّ، وهي أشبه بالأمثال العربيّة، والجمل القصيرة، ذوات المعاني الغزيرة التي أولع بها العرب، وهي نتيجة تجارب كثيرة، تُركَّز في جملة بليغة. والعقلُ يميل إليها أكثر ممّا يميل إلى التّفكير الفلسفيّ العميق المنظّم»[33]. وقد أكثرَ منها سهلٌ إلى حدٍّ كبير، حتَّى إنَّ أدَبَه يعجّ بالحِكَم والأمثال، وفي قصَّة (النّمر والثّعلب) فيضٌ منها.

32– النجار، محمّد رجب: حكايات الحيوان في التراث العربيّ، ص 194 (مجلّة عالم الفكر، الكويت).

33– الطويل، توفيق: في تراثنا العربيّ الإسلامي، ص84.

وقد اقتبس سهلٌ من (كليلة ودِمْنة) حِكمًا كثيرة، وضمّنها كتابه، وأورد ابنُ قتيبة (ت276هـ) في عيون الأخبار كثيرًا منها، استقاها . في الغالب . من (كليلة ودِمْنة). ومِثْله ابن عبد ربه (ت328هـ) في العِقد، وغيرهما كثير. وأسوقُ ههنا أمثلة للتَّدليل على استلهام سهلٍ الثَّقافة الهنديَّة، وأثرها في تكوينه الثَّقافيّ، من خلال اقتباسه حِكَمًا وردت في (كليلة ودِمْنة)، ثمّ نَقَلَها ابنُ قتيبة في (عيون الأخبار):

– يقول سهلٌ: «وقد كان يُقال: أعمالٌ ثلاثةٌ لا أحَدَ يستطيعها إلا بمعونةِ ارتفاع همّة وعِظَم خطر: صُحبة المُلوك، وتجارة البحر، ومُناجزة العدوّ»[34].

– وفي كليلة ودِمْنة: «وقد قيل في أمورٍ لا يستطيعها أحدٌ إلا بمعونةٍ من ارتفاع همّة، وعظيم خطر منها: عَمَل السُّلطان، وتجارة البحر، ومُناجزة العدوّ»[35].

– ويقول ابن قتيبة: «وفي كتابٍ للهند ثلاثةُ أشياء لا تُنال إلا بارتفاع همّة وعظيم خطر: عمل السُّلطان، وتجارة البحر، ومُناجزة العدوّ»[36].

. ويقول سهلٌ أيضًا: «واعلم أنَّ الرِّجال ثلاثةٌ؛ حازمان وعاجزٌ، فأحَدُ الحازمين إذا نزلَ به الأمرُ من البلاء لم يَدْهَش، ولم يذهب قلبُه شَعَاعًا، و لم يَعْزُبْ رأيُه عن حيلته التي يرجو بها المخرج من ورطته، وأحزم من هذا المتقدّم ذو العُدّة الذي يعرف الأمر قبل وقوعه، وأمَّا العاجز فالذي لا يزال في التَّردّد والتَّحيّر حتَّى يهلِك»[37].

– وفي كليلة ودِمنة: «فإنَّه يُقال: الرِّجال ثلاثةٌ؛ حازمٌ، وأحزمُ منه، وعاجزٌ. فأحدُ الحازمين مَن إذا نزلَ به الأمرُ لم يَدْهَشْ له، ولم يذهبْ قلبُه شَعاعًا، ولم تَعْيَ به حيلتُه ومَكيدته التي يرجو بها المخرج منه. وأحزمُ من هذا المتقدّمُ ذو العُدَّة الذي يعرف الابتلاء قبل وقوعه فَيُعظمه إعظامًا ويحتال له حتَّى كأنَّه قد لزِمه، فيحسِم الدَّاءَ قبل

34– النّمر والثّعلب، ص16.

35– ابن المقفّع، عبد الله: كليلة ودمنة، ص104.

36– عيون الأخبار 231/1.

37– النّمر والثّعلب، ص30.

أن يُبتلى به، ويدفع الأمرَ قبل وقوعه. وأمَّا العاجزُ فهو في تردّدٍ وتمنٍّ وتوانٍ حتَّى يهلِك»[38].

. ويقول ابن قتيبة: «وقرأتُ في كتابٍ للهند: النَّاسُ حازمانِ وعاجزٌ، فأحدُ الحازمين إذا نزلَ به البلاءُ لم يَنْظُرْ به وتلقَّاه بحِيلته ورأيه حتَّى يخرجَ منه، وأحزمُ منه العارفُ بالأمر إذا أقبلَ فيدفعه قبل وقوعه، والعاجزُ في تردُّدٍ وتَئَنٍّ، حائرٌ بائرٌ لا يأتمِرُ رَشَدًا ولا يُطيعُ مُرْشِدًا»[39].

وعلى هذا النَّحو مضى سهلٌ يصدرُ في كثيرٍ من حِكَمه عن حِكَم الهند ومأثوراتها، فاستقى من (كليلة و دِمْنة) حِكَمًا، وساقها على لسان شخصيّات قصّته (النَّمر والثَّعلب)، دون نبوٍّ أو استطراد. كما أنَّ آراءَ الهنود في البلاغة أثّرت في أدبه إلى حدٍّ ما، أو في مفهومِه للبلاغة، وقد أورد الجاحظ بعضًا منها في كتاب (البيان والتبيين) [40].

3- المصدر اليونانيّ :

الثَّقافةُ اليونانيَّة من أهمِّ الثّقافات التي أثّرت في تكوين سهل، شأنه شأن كلِّ المثقّفين في عصره؛ إذ كانت شائعةً في تلك المناطق، منذ فتوح الإسكندر للمشرق في القرن الثّالث قبل الميلاد. وتُعَدُّ أهمّ الثّقافات التي أثّرت في الفكر العبَّاسيّ، وخاصّة بعد أن نَشِطَتْ حركةُ التَّرجمة وبلغت الذّروة والأوج في عهد المأمون. ولعلَّ أهمَّ ما تُرجم عن اليونانيَّة الفلسفة وما يتبعها من المنطق، وكان لها أبلغ الأثر في ازدهار الحياة الثّقافيّة والفكريّة آنذاك.

وقد مرَّ بنا أنَّ المأمون جعل سَهْلاً قيّمًا على دار الحِكمة، «وهي كتبُ الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرس»، كما يقول ابن نُباتة[41]. ورأى شوقي

38 – كليلة و دمنة، ص123.

39 – عيون الأخبار 280/1.

40 – البيان والتبيين 88/1 وما بعدها.

41 – سرح العيون، ص242.

ضيف أنَّ مهمّته الإشراف على نَقْلِها إلى العربيَّة[42]. ويتساءل المرء: هل يمكن أن يكون الرَّجل مُشْرفًا على كتب الفلسفة، وعمليّة نقلها إلى العربيَّة، لمجرد كونه مُثقّفًا بالثَّقافة اليونانيَّة وحسب، دون أن يُتقن اللُّغة نفسها؟ أغلب الظَّنّ أنَّ سَهْلاً كان على معرفةٍ أو إلمامٍ باليونانيّة، وإلا لما تسنَّم هذا المنصب. وصحيح أنَّه كان ثمّة مُترجمون مُتخصّصون في بيت الحِكمة، إلا أنَّ عمليةَ الإشراف نفسها تستدعي معرفةً بأسماء الكتب اليونانيّة، التي يُراد ترجمتها إلى العربيَّة، ومدى قيمتها العلميّة، وما إلى ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ سَهْلاً كان مُثقّفًا بالثَّقافة اليونانيّة، وخاصّة الفلسفة وعلم المنطق، ويبدو ذلك للوَهْلة الأولى لمن يقرأ أدبه، فقد نَهِلَ منها مُذ كان في البصرة، التي احتضنت في أرجائها كلَّ الثّقافات، وكانت مدرسة جُنْديسابور قريبة منها، وتغلب عليها الثَّقافة اليونانيّة كما نعلم، فأثّرت في نزوعها العقليّ، وتنوّعت الفرق والمِلَل والنِّحل، وغلبَ الاعتزال عليها، فكانت سوق المِرْبد ميدانًا للمتكلّمين، الذين تسلّحوا بالفلسفة اليونانيّة والمنطق الأرسطي. وتجدر الإشارة إلى أنَّ شيوخ الاعتزال كانوا من البصرة؛ إذ هي موطن المعتزلة أساسًا، كواصل بن عطاء (ت131هـ)[43]، وعمرو بن عبيد (ت نحو145هـ)[44]، وأبي الهُذيل العلاّف (ت نحو227هـ)[45]، والنّظَّام (ت231هـ)[46]، والجاحظ (ت255هـ)، وغيرهم. فتعمَّق سهلٌ في الاعتزال وعِلْم الكَلام، ومدّ تعمّقه إلى الفلسفة والمنطق.

42- العصر العبّاسيّ الأوّل، ص527.

43- واصل بن عطاء: أبو حُذيفة الغزّال، رأس المعتزلة، ومن أئمّة البُلغاء والمُتكلّمين، ت سنة 131هـ. ينظر: معجم الأدباء 5/567-569.

44- عمرو بن عبيد بن باب: أبو عثمان، شيخ المعتزلة في زمنه، وأحد الزّهاد والمشهورين، جالسَ الحسنَ البصريّ وأخذَ عنه، ت نحو 145هـ. ينظر: تاريخ بغداد 12/166-188.

45- أبو الهُذيل العلاف: محمَّد بن الهذيل، مولى عبد القيس، من أئمّة المعتزلة، وكان حسنَ الجدَل قويّ الحجّة، ت نحو سنة 227هـ، وقيل سنة 235. ينظر: الفهرست، ص285-286. تاريخ بغداد 3/366.

وتتجلّى نزعة سهلٍ الفلسفيَّة في أدبه بوضوح، من خلال تحليلاته الدّقيقة، وتفسيراته المنطقيّة. كذلك نلمح لأقوال فلاسفة اليونان وحُكمائهم في أدبه ظلالاً وأصداء. ومن كُتب سهلٍ التي يُفهم من أسمائها أنَّها تصبُّ في تيَّار القضايا العقليّة الدّقيقة، كتاب (شجرة العقل)، وكتاب (القوانين).

ولعلَّ أوَّلَ مؤثّرات الفلسفة اليونانيّة في تكوينه الثَّقافيّ، يتمثّل في تمجيده العقل إلى حدِّ الغُلوِّ، ممَّا عُرف عند المعتزلة الذين تأثّروا بالفلسفة اليونانيّة، واتخذوها مَطيّة للوصول إلى بُغْيتهم، من الإقناع وإفحام الخصوم. يقول الجاحظ: «ولا يكون المُتكلّمُ جامعًا لأقطار الكلام مُتمكّنًا في الصّناعة حتَّى يكونَ الذي يُحْسِنُ من كلام الدِّين في وزنِ الذي يُحسِنُ من كلام الفلسفة»[47]. وممَّا قاله سهلٌ في وصف العقل: «أمَّا العقلُ فإنَّه قائمٌ لكلِّ محمود، وجُنَّة من كلِّ مدفوع، حياةُ النَّفس وراحةُ البَدن، مُدّتُه إلى السُّرور، وأيَّامُه إلى السَّلامة، جامعُ شَمْلِ المذاهب، وراجع فَوْتِ كلِّ ذاهب، كَنَفُ الرَّحمة ومفتاح الهُدى، إتاحة الموَدَّة للصَّائبين، والسَّاقط بالظَّنِّ عن اليقين، وزارعُ الخير، ومثمرُ الفطنة، وحامي الهوى عن مَرَاتع الهَلَكَة، لا يخبو نورُه، ولا يكبو زَنْدُه، يُجنيك ثمرَ العافية، ويَقِيك محذورَ العاقبة، يستصحب الصَّنَع، ويَرُبّ التَّوفيق، مفتاحُ الخيرات، ومَعْدِنُ الصَّالحات، عليه معوّل المَحْرُوم، وفيه عِوَضٌ من المَعْدُوم»[48].

وتتّضحُ في أدبِه قدرتُه الفائقة على توليد المعاني وتفريعها، وتقسيم الكلام إلى فِقَرٍ متناسبة، والإتيان بغوامض الحُجَج وخفيّاتها، والتَّحليل والتَّعليل، والأقيسة المنطقيَّة، ونحو ذلك ممَّا يتعلّق بتأثيرات المنطق وعِلْم الكلام. وقد أودع قصَّته (النَّمر

46- النَّظّام: أبو إسحاق، إبراهيم بن سيّار، المعروف بالنَّظّام، أحد شيوخ المعتزلة، وأستاذ الجاحظ في عِلْم الكلام، وكان لَسِنًا بليغًا، ت 231هـ. ينظر: طبقات الشّعراء، ص271-272. الفِهرست، ص287-288. سرح العيون، ص226-231.

47- الحيوان 134/2.

48- النّمر والثّعلب، ص51. والصَّنَعُ: يُقال: لسانٌ صَنَعٌ؛ أي بليغٌ ماهر، وهو صَنَعُ اللّسان، وصَنَعُ اليدين: حاذقٌ في الصَّنعة، جمعه: أَصْنَاعٌ وصُنُعٌ. والصَّنَاع: الماهر في صنعته.

والثَّعلب) ضُروبًا من التَّفكير الفلسفيّ، والقضايا المنطقيّة، في حِوارٍ فلسفيٍّ شائق، على شاكلة الحوار الأفلاطونيّ. ولنسمع بعضًا منه: «قال: فهل تُحيط المعرفةُ بمِقْدارِ عقلِ الإنسان، حتَّى إذا أرادَ واصفٌ أن يَصِفَه لم يجاوزه حَدَّه إلى زيادةٍ، ولم ينقصْ عنه إلى نُقصان. قال: إنَّ ذلك ثباتُ المعرفة، وقد يوجد الإنسانُ ثابتَ المعرفة بشيءٍ، وغير ثابِتها بشيءٍ آخر، وخلال ذلك دَرَجٌ كثيرة، فلا يقدرُ على إحصاءِ ما ثَبَتَ فيه معرفة المرءِ ممَّا لا يَثْبُتُ إلا الخالقُ، غير أنَّ قلوبَ أولي الألباب، وموازين مَعْرفتها، لا يَزِنُ بها أحدٌ بعد اختباره وصحّةِ الفَهْم له، إلا كادت تضعه في موضعٍ يبيّنها العدلُ منها، وللقلوبِ في ذلك بما طُوِّقَتْه من الفَهم فضلٌ على الألسن بما طُوِّقَتْه من النُّطق، وإن كانت تراجمة القلوب أسمى؛ ألا ترى أنَّ قائلاً لو اجتهد في وَصْفِهِ لما أَتَى على كُنْهِ معرفةِ قلبه، وليس ذلك لكَلالٍ من اللّسان يَلْزَمُهُ عَيْبُهُ، ولكنَّ الفهمَ عن المنطق سببُ نقصِه. قال: وما سببُ ذلك؟ قال: سبب ذلك أنَّ اللّسانَ رسولٌ والقلبَ مُرْسِلٌ، ولا يقوم الرَّسولُ مقامَ المُرسل. قال: أخبرني على قدرِ ما أوتي كلّ امرئ من العقل؛ أعَرَضٌ اكتسبه بالتَّوفيق له، أم خَلّة فُطِرَ عليها كامنةٌ في جَوهره؟ قال: بل صَنْعةٌ موجودةٌ في ضَرِيبته»[49].

وعلى هذه الشَّاكلة يتمثّل سهلٌ في أدبه مباحثَ المناطقة، وأساليبَ المتكلّمين، بمُرونةٍ ويُسرٍ، دون أن يُكلّفَ اللُّغةَ مَشَقَّةً وعَنَتًا، بل يُطوّعها لأداء معانيه التي لا تكادُ تَنْضُبُ، ودون أن يجورَ على جمالِ العبارة، ومتانةِ السَّبك، وحُسْنِ الأداء، الذي يلذّ الأذنَ مُوسيقيًّا، كما يلذُّ العقل فكريًّا.

وممَّا يمكن قوله في هذا الصَّدد أيضًا، أنَّ سَهْلاً يستخدم في أحيانٍ كثيرة، ألفاظًا وعبارات ومصطلحات فلسفيّة أو كلاميّة، كالجوهر والعَرَضِ والحَدّ والوجود والعَدَم والرّوح و... إلخ، ممَّا شاعَ في أجواء المُتكلّمين ومُناظراتهم. وله مُناظرةٌ طريفة في مَدْحِ الزُّجاج وذمِّ الذَّهب، في أحد مجالس أولي الأمر؛ وكان النَّظّام المُعتزليّ ذمَّ

49- النّمر والثّعلب، ص48-49. والدَّرَجُ: المراتب والمنازل، جمع دَرَجَة. والضَّريبة: الطّبيعة والسَّجيّة.

الزُّجاج، وشدَّاد الحارثيّ مدَحَ الذَّهب، فرامَ سهلٌ إظهارَ براعتِه في هذه المُناظرة بأنْ مَدَحَ الزُّجاج وذَمَّ الذَّهب[50].

والحقّ أنَّ تأثيرَ الثَّقافة اليونانيَّة في أدب الرَّجل واضح القَسَمات، أمدَّه بقُدْرةٍ عقليَّة فائقة، استفاد منها سهلٌ في إيراد الحُجَج الغامضة، والتَّعليلات الخفيَّة، والتَّحليلات الدَّقيقة، والمعاني المُبتكرة، ما مكّنه من الدِّفاع عن آرائه في الاقتصاد والبلاغة، والعقل والمعرفة، وغير ذلك، حتَّى إنَّه لينقض الآراء التي تواترَ القولُ بصحّتها اعتمادًا على قُدرته في المُغالطة، والإتيان بغوامض الحُجَج.

* * *

المصادر والمراجع:

. القرآن الكريم.

. ابن الأبّار، محمَّد بن عبد الله: **إعتاب الكُتّاب**، تح: صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللُّغة العربية، دمشق، ط1، 1961م.

50- يُنظر نصّ المناظرة في: مجمع الأمثال 252/2-253. وشدّاد الحارثيّ: هو أبو عُبيد الله، ذكره الجاحظ، وقال: كان خطيبًا عالمًا. ولم أعثر له على ترجمة. ينظر: رسائل الجاحظ 178/1 (رسالة فخر السودان على البيضان)، والحيوان 278/5، والبيان والتبيين 71/2.

ـ ابن بدرون، عبد الملك بن عبد الله: **شرح قصيدة ابن عبدون،** بعناية: دُزِي، طبع في مدينة ليدن سنة 1846م.

ـ بدوي، أمين عبد المجيد: **جولة في شاهنامة الفردوسيّ،** مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

ـ البغداديّ، إسماعيل باشا: **هدية العارفين،** دار الفكر، بيروت، 1402هـ/ 1982م.

ـ التَّوحيديّ، أبو حيّان: **الصَّداقة والصَّديق،** إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، 1964م.

ـ الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين،** تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون، دار الفكر، بيروت، د.ت.

* **الحيوان** ، تحقيق وشرح : عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت ، 1416هـ/1996م.

* **رسائل الجاحظ،** تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، د.ت.

ـ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: **كشف الظنون** (ومعه إيضاح المكنون وهديّة العارفين للبغدادي)، دار الفكر، بيروت،1982م.

ـ الحصريّ القيروانيّ، إبراهيم بن علي: **زهر الآداب،** تح: علي محمّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط2، د.ت.

ـ ابن حَمْدون، محمَّد بن الحسن: **التّذكرة الحمدونيّة،** تح: إحسان عبّاس وبكر عبّاس، دار صادر، بيروت، ط1، 1996م.

ـ الحمويّ، ياقوت بن عبد الله: **مُعجم الأدباء**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1411،1هـ/1991م.

ـ الحوفي، أحمد محمّد: **تيَّارات ثقافيَّة بين العرب والفُرس،** دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط3، د.ت.

ـ الخطيب البغداديّ، أحمد بن عليّ: **تاريخ بغداد**، دار الكتب العربية، بيروت، د.ت .

ـ الخفاجيّ، شهاب الدّين: **طراز المجالس**، دراسة وتحقيق: محمد فرحان الطرابلسي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق 1991م.

ـ الدّميري، كمال الدّين: **حياة الحيوان الكبرى**، وضع حواشيه وقدّم له: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1415هـ/1994م.

ـ الدّينوريّ، أبو حنيفة: **الأخبار الطّوال**، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1960م.

ـ زكي، أحمد كمال: **الحياة الأدبيّة في البصرة إلى نهاية القرن الثّاني الهجري**، دار الفكر، دمشق، ط1، 1381هـ/1961م.

ـ الزَّمخشريّ، جار الله محمود بن عمر: **ربيع الأبرار**، تح: سليم النّعيمي، دار الذخائر للمطبوعات، ط1، قم . إيران، 1410هـ.

ـ سهل بن هارون: كتاب **النَّمر والثَّعلب**، حقّقه وقدّم له وترجمه إلى الفرنسية: عبد القادر المهيري، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب، تونس، 1973م.

ـ الصّفدي، صلاح الدّين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، تحقيق: مجموعة من العرب والمستشرقين، الجزء 16 باعتناء: وداد القاضي، دار النشر فرانز شتاينر بفيسيادن، 1402هـ/1982م.

ـ ضيف، شوقي: **العصر العبَّاسيّ الأوَّل**، دار المعارف بمصر، ط6، د.ت.

* **الفنّ ومذاهبه في النّثر العربيّ**، دار المعارف بمصر، ط4، 1965م.

ـ الطَّبريّ، أبو جعفر محمَّد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، تح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، د.ت .

ـ الطَّويل، توفيق: **في تراثنا العربيّ الإسلاميّ**، سلسلة عالم المعرفة (78)، الكويت، 1985م.

ـ **ابـن الطقطقـا**، محمَّد بـن علـيّ بـن طباطبـا: **الفخـري فـي الآداب السُّـلطانيَّة**، دار صادر، بيروت، 1386هـ/1966م.

ـ **العـاكوب**، عيسـى: **تـأثير الحِكـم الفارسـيَّة فـي الأدب العربـيّ فـي العصـر العبَّاسـيّ الأوَّل**، دار طلاس، دمشق، ط1، 1989م.

ـ **ابـن عبـد ربّـه**، أحمد بـن محمَّد: **العقـد**، شرحه وضـبطه: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1361هـ/1942م.

ـ **ابن قتيبة**، أبو محمَّد عبد الله بن مسلم: **عيون الأخبار**، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية لسنة 1343هـ/1925م.

ـ **الكتبي**ّ، محمَّد بن شاكر: **عيـون التّواريخ** (من سنة219 إلى سنة 250هـ)، تح: عفيف نايف حاطوم، دار الثقافة، بيروت، 1416هـ /1996م .

* **فوات الوفيات**، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، د.ت.

–**كحّالة**، عمر رضا: **معجم المؤلفين**، مؤسسة الرّسالة، بيروت، د.ت.

ـ **كردعلي**، محمَّد: **أمراء البيـان**، مطبعـة لجنـة التأليف والترجمـة والنشـر، القاهرة، ط2، 1367هـ/1948م.

* **رسـائل البلغـاء** (اختيـار وتصـنيف)، مطبعـة لجنـة التـأليف والترجمـة والنشـر، القاهرة، ط3، 1365هـ/1946م.

ـ **محمّدي**، محمَّد: **الأدب الفارسيّ**، منشورات قسم اللُّغة الفارسيَّة في الجامعة اللبنانيّة، بيروت، 1967م.

ـ **المسـعودي**، علـيّ بـن الحسين: **مـروج الـذّهب**، صـنع فهارسـه: يوسف داغر، دار الأندلس، بيروت، 1416هـ/1996م.

ـ **ابـن المعتـزّ**، عبد الله: **طبقـات الشُّـعراء**، تـح: عبد السّتار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، ط3، د.ت.

ـ ابن المقفّع، عبد الله: **كليلة ودمنة،** بعناية : محمَّد حسن نائل المرصفي، دار المسيرة، بيروت، ط4، 1981م.

ـ الميدانيّ، أحمد بن محمَّد: **مجمع الأمثال،** تح: محمَّد محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة السّنة المحمديّة، 1374هـ/1955م.

ـ ابن نباتة المصريّ، جمال الدّين: **سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون،** تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مطبعة المدني، القاهرة، 1383هـ/1964م.

ـ النجّار، محمَّد رجب: **((حكايات الحيوان في التراث العربي))،** مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد (24) ،ع1و2 ، 1995م.

ـ النَّديم ، محمَّد بن أبي يعقوب إسحاق: **الفِهرست،** شرحه وعلّق عليه: يوسف علي طويل، وصنع فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416هـ/1996م.

ـ اليمنيّ، محمّد بن حسين: **مُضاهاة أمثال كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب،** تح: محمَّد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، 1961م.

The Incoming Influences in the Abbasid Literature

(Sahl Ibn Haroun as a Model)

Abstract

Sahl Ibn Haroun obtained a great deal of the extensive culture of his time, and he drank from the fountains of science in Basra. Various currents of cultures and ideas were crowded in his environment. Therefore, he was influenced by them; his mind realized them; and their influences were obvious in his literature. After all, a writer is issued by his knowledge, and the outcome of his culture.

It appears that Sahl was a wide circle of knowledge, and that his method of artistic prose, and the humor and seriousness of his subjects, were the result of this knowledge. In this research, we will identify the incoming cultural currents that influenced his formation. So, his literature included these currents and he followed them in his subjects and ideas.